# البناء الحواريّ في الحديث النبويّ صُوَرُهُ التركيبيّة و سماتهُ البلاغيّة

## دراسة تحليليّة في حديث " أفضل الأعمال"

**د بوترعه عبد الحميد**
**أستاذ محاضر ب**
**قسم اللغة والأدب العربي - جامعة الشهيد حمّة لخضر- الوادي(الجزائر)**

hamid752007@yahoo.com

**ملخّص :**

يهدف هذا المقال إلى الكشف عن صُوَرِ الحوار في الحديث النبويّ الشريف ، وما يؤدّيهِ من دَوْرٍ في التفاعل بين المتحاورين ، فضْلاً عن النظر في أبرز السمات الأسلوبيّة والخصائص البلاغيّة التي يتميّزُ بها ، وهذا من خلال حواره صلّى الله عليه وسلّم مع الصحابيّ الجليل عبد الله بن مسعود حوْلَ أفضل الأعمال و أحبّها إلى الله عزّ وجلّ.

**Abstract**:

This article aims at clarifying the types of the dialogue in the Prophet's Hadith, and the role of this dialogue in the interaction between the interlocutors, in addition to the study of the most stylistic features, and rhetorical characteristics of that characterize it through the dialogue between prophet Mohammed (PBUH) and the great companion (sahabi) Abdullah bin Messaoud About the best lovely works to Allah .

**مقدمة :**

تعددّت أساليب الخطاب و تنوّعت تبعًا لذلك أنماط بُناه التركيبيّة ودلالاتـه النصيّة وسماته البلاغيّة، ويُعدُّ الحوارُ مِنْ أهمّ هذه الأساليبِ ، إذْ بواسطتهِ يَستثيرُ المخاطِبُ اهتمام المخاطَبِ حتّى يكونَ حديثهُ مقبولاً ومسموعًـا، فإذا تحقّقَ له ذلك استطاعَ أنْ يُؤَثّر فيهم، ويُقنعهم برأيهِ ، و خَاصّةً إذا كان ذا مكانةٍ في نفوسهمْ ، وهو يُوَظّفُ في جُمْلتهِ لنقْلِ المعلومات لا بطريقِ الخبر، وإنّما بطريق الإنشاء من خلال السؤال والجواب خاصّةً ، فالناسُ في حاجةٍ ماسّةٍ إلى الحوار لتأسيسِ صيغةٍ معرفيّةٍ متجدّدةٍ تعتمدُ تزاوجَ الأفكار وتبادل الرؤى من خلال الوقوف على الرأي الآخر، تحقيقًا للتواصُل ، وابتعادًا عن العُزْلة والانكفاء اللذيْن لمْ يَبْقَ لهما مكانٌ في عالم اليومِ بفعْلِ التطوّر الهائل في وسائل الاتّصال ، وتنامي حاجة الإنسان لأخيه الإنسان.[1]

والحديثُ النبويُّ الشريف كونُهُ خطابًا منهُ صلّى الله عليه وسلّم - وهو مِنْ جوامعِ الكلم- مُوجَّهٌ إلى المسلمين خاصّةً والناس عامّةً ، قدْ كان للحوارِ دورٌ رئيس في هيكلة بنيته التركيبيّة و توجيهِ أبعادهِ الدلاليّة ، وهو النهج العام للحديث النبويّ لأنّه ε يُحاوِرُ الصحابةَ، ويَشهدُ تفاعلَهُمْ معَ بيّنات الدين الإسلاميّ القويمِ، فهو أحَقّ كلامٍ بشريٍّ بصفة الحوار، وهو أحسنُ وسيلةٍ مِنْ وسائل تبليغِ الحقّ و نُصْرتهِ ، ودفْع الباطلِ ، وتعليم الصّحابة أمور دينهم ودنياهم ، مِنْ هُنَا جَاءتْ دراستُنَا هذه تستهدفُ الكشفَ عن صُورِ الحوار في الحديث النبويّ ومَا يُؤدّيهِ من تفاعلٍ بين طرفيْ الخطاب ، فضْلاً عن النظر في أبْرزِ سِمَاتهِ الأسلوبيّة وخصائصه البلاغيّة، وهذا مِنْ خلال حِوارهِ صلّى الله عليه وسلّم معَ الصحابيّ الجليل عبد الله بن مسعود حَوْل أفْضلِ الأعمال وأحبّها إلى الله عزّ وجلّ. مِنْ هنا نُحاولُ في مقالنا هذا الإجابةَ على جُمْلةٍ مِنَ التساؤلاتِ :

- ما مفهومُ الحوار لغةً واصطلاحًا ؟ و فيمَ تكمُنُ أهمّيتهُ ؟
- ما صُورُ الحوارِ في الخطاب النبويّ ؟
- ما هي مظاهرُ البناء الحواريّ في حديثهِ صلّى الله عليه وسلّم مع الصحابيّ الجليلِ عبد الله بن مسعود حوْلَ أفضلِ الأعْمالِ ؟ ومَا هي أبرزُ سِماتهِ الأسلوبيّة وخصائصهِ البلاغيّةِ ؟

**تعريفُ الحِوَارِ:**

**لُغَـةً** :

جاءَ في لسان العرب : حَوَرَ الحَوْرُ: الرجوعُ عن الشيْء وإلى شيْء ، حَارَ إلى الشيْء وعنهُ حَوْرًا ومَحَارًا ومحَارَةً و حوْورًا : رجعَ عنهُ وإليهِ ، وكلّ شيء تغيَّرَ منْ حالٍ إلى حالٍ : فقدْ حارَ يحُورُ حوْرًا ، و أحَار عليهِ جوابهُ : ردّهُ ، وأحرْتُ لهُ جوابًا ومَا أحَار بكلمةٍ ، والاسمُ من المُحاورة الحويرُ ، تقولُ : سمعتُ حَوِيرَهُمَا وحِوارَهُمَا ، والمُحاورةُ المُجَاوبةُ ، والتحاورُ : التجاوبُ ، والمُحاورةُ مُراجعةُ المنطق والكلام في المُخاطَبةِ ، وقدْ حَاورَهُ والمَحُورةُ من المُحاورةِ مصدرٌ كالمشُورةِ من المُشاورةِ[2].

والمُحَاورة والمَحْوَرة و المحُورةُ : الجوابُ، كالحَوير والحوَار، ويُكْسرُ. والحيرة والحُوَيرةُ ومُراجعةُ النطق ، وتحاورُوا : تراجعوا الكلام بينهم . وحوَّرهُ تحْويرًا : رجَعهُ ، استحارهُ : استنطقهُ . و التحاورُ: التجاوبُ[3] .

وَ فِي المعجم الوسيط : حَارَ بصَرُهُ حيْرًا وحَيْرَةً و حَيرانًا : نَظرَ إلى الشيْء فلمْ يَقْوَ على النظر إليهِ وارتدَّ عنهُ . وحارَ حوْرًا : رجَع ، وفي التنزيل ﴿ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴾[4] ، ويُقَالُ حارَ إليْهِ والشيْء : نقص ، ويُقالُ : حَارَ بعدما كَارَ : نقُصَ بعدما زادَ، وأعوذ بالله من الحوْر بعد الكوْر . و حاورَهُ مُحاورة و حوارًا : جاوبهُ و جادلهُ ، وفي التنزيل العزيز﴿ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾[5]. وتحاوروا : تراجعوا الكلام بينهم و تجادلوا ، وفي التنزيل العزيز ﴿ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ﴾[6]. والحوار حديثٌ يجري بين شخصيْن أو أكثر في العمل القصصي، أوْ بينَ مُمَثليْن على المسرح ونحوه .[7]

فالحوارُ لغةً إذن دار حول معانٍ عدّة ، الرجوع عن الشيْء، التغيُّر من حالٍ إلى حالٍ، المجاوبة ، مراجعة المنطق و الكلام .

**اصطلاحًا** :

هو نوعٌ من الحديث بين شخصيْن أو فريقيْن يتمُّ فيه تداول الكلام بينهما بطريقة متكافئة، فلا يستأثر أحدهما دون الآخر، ويغلب عليه الهدوء والبعد عن الخصومة والغضب، ومثال ذلك

ما يكون بين صديقيْن في دراسة أوْ زَميليْن في العمل ، أوْ مجموعة في نادٍ أو مجلسٍ أو سهرةٍ.[8] فالحوارُ ظاهرةٌ إنسانيةٌ بلْ عالميةٌ بوجودها في غير الأجناس البشرية كالملائكة وإبليس ، وقدْ خَلَقَ الله تعالى الإنسان ناطقاً مُفَكِّرًا تتوارد عليه أفكار ومعلومات يجد نفسه مدفوعًا بالجبلة والطبع إلى حبّ الإفضاء بها والإفصاح عنها، وشأن الحوار ملموس في حياته العملية حتى في مجالس الناس، فَالمتحدِّثُ الحصيفُ لا يرتضِي لنفسهِ أنْ يكون هو المتحدِّث الوحيد ، بلْ تراهُ حريصًا على أنْ يُشركَ معه الحاضرين ويستثير، اهتمامهم بخُلقِ الحوار حتّى يكون حديثهُ مقبولاً ومسموعًا فإذا تتحقّقَ لهُ ذلك استطاعَ أنْ يُؤَثِّر فيهم و يُقنعَهمْ برأيِهِ ، وخَاصَّةً إذَا كان ذا مكانةٍ في نفوسهم ، وهو يُوَظّفُ في جملتهِ لنقل المعلومات لا بطريق الخبر، وإنّما بطريق الإنشاء من خلال السؤال والجواب ، أو رأيْن يلتقيان أو يفترقان من حول الشيْء و نقيضِهِ ، مِمّا يُعطي الإطارَ الذي تنقل به المعلومة حيويّةً تفضل السّرْد الذي قد يُشْعِرُ بالسّأم والملل فتستنفر المُحَاورةُ عنايةَ السامع واهتمامه لمتابعة ما يطرح من معلومات ، وما يُؤثر من انفعالات [9].

والمحاورة بالتي هي أحسن وسيلة مهمّة من وسائل تبليغ الحقّ و نصرته ، ودفع الباطل ، وهدفها الوصول إلى الحقيقة ، وهو أداة مشتركة تتكوكبُ فيها الآراء ، وتستعرض فيها المسائل ، ويستخلص منها ما دلّ عليه الدليل الشرعي أو النظري ، ووسيلة من وسائل التسامح و التعاون على البرّ و التقوى [10].

**فوائدُ الحوارِ وأهمّيتُهُ :**

يكتسي الحوارُ أهمّيةً كبرى في حياة الفرد والجماعة ، و لهُ فوائدُ عدّةٌ نعرضُ منها بعضًا ممّا ذكَرهُ السيد علي خضر في بحثه "الحوار في السيرة النبويّة" :

1- الحوار وسيلة مثلى لنقل الأفكار وتبادل المعلومات و تنمية القدرة على التفكير و التواصل مع الآخرين ، وهو وسيلة ناجعة للتعلم .

2- الحوار وسيلة للتعارف بين الناس ، ولن يتمّ تحقيق التعرف إلاّ بالتحاور ، وهو ما يعرف اليوم بالحوار الداخلي بين أبناء المجتمع الواحد كحوار المثقفين والسياسيين و الاقتصاديين ، وغير ذلك

3- الحوار وسيلة لتجنّب سوء الفهم ونشوء الصراع ، فالنبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان حريصًا حلّ الخلافات والخصومات بين المجتمع المسلم ، فكان يدعو إلى إفشاء السلام ، ويُحرِّمُ هجر المسلم أخيه المسلم فوق ثلاث ليالٍ.

4- الحوار وسيلة لتنمية الفكر بالاتصال بالآخرين ، وعرض الأفكار عليهم والأخذ والردّ ، لذلك رسّخ الإسلام مبدأ الشورى ، وهي عمل حواريّ تتلاقح فيه الأفكار و الآراء للوصول إلى الرأي السديد ، وقد مارسها النبيّ صلّى الله عليه وسلّم طيلة حياته المباركة .

5- الحوار واحدٌ من أهمّ وسائل الدعوة إلى الله تعالى ، سواء دعوة الأفراد أو الجماعات ، وسواء دعوة المسلمين للتفاهم والتعلّم أو دعوة غير المسلمين إلى الإسلام[11] ، فمن أهداف الرسل أنْ يُحرّروا البشرية من عبادة العباد و تأليه الأحجار و الأشجار والكواكب ، وأنْ يُوصلوها إلى عبادة الله وتوحيده ، وبيان أسمائه وصفاته ، وأن يُبيِّنوا لهم الحقائق الأخرى التي لا يمكن للإنسان أن يُدْركها بعقله ، كالبعث و الحساب و الجزاء على الأعمال في اليوم الآخر ، حتّى يؤمنوا و يصدّقوا بها .[12]

**- صُوَرُ الحوار في الحديث النبويّ :**

الحوار الجيّد يتميّزُ بصفتيْن أساسيتين : التركيز و الإيجاز ، ذلك أنّ الطول في العبارة الحوارية يُميت الحيوية ، و الحوار في مجال التعليم قائم فيه الدرس الجيّد على مبدأ الحوار الذي يُديرهُ المُدرّس متّخذًا منه وسيلة لأداء المعلومات و إيصالها إلى أذهان تلامذته ، وقد كان الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم يتّخذه أداة تعليميّة يلجأ إليها ليُحرّك أذهان صحابته في الموضوع

الذي يُريدُ أنْ يتحدَّث فيه حتى إذا انتهى أحدهم إلى نتيجة بسبب هذه الإثارة الذهنيّة تطلَّع إلى الرسول يُصغي لحديثه.[13]

وكان للرسول (ص) طرُقٌ في إثارة الحوار و إدارته نذكرُ منها :

1- أنْ يأتي بجملة تبدو غريبة لأوّل وهلة ، وقد تكون معارضة لما تعلّم الصحابة من أحكام هذا الدين الجديد ، فتستثير أسئلتهم ، ومثاله قوله صلّى الله عليه وسلّم : « انصُرْ أخاك ظالمًا أو مظلومًا» فقال رجُلٌ : يا رسول الله أنصُرُه إذا كان مظلومًا ، أرأيت إذا كان ظالمًا كيف أنصُرُه ؟ قال : « تحجزه أو تمنعه من الظلم فإنّ ذلك نصرُهُ. »[14]

2- إيراده صلّى الله عليه وسلم السؤال بشكلٍ مشوّق يُرغّبهم في أنْ يعرفوا الجواب ، كقوله صلّى الله عليه وسلّم : « أَلا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ ؟ قَالُوا : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ ، وَانْتِظَارُ الصَّلاةِ بَعْدَ الصَّلاةِ, فَذَلِكُمْ الرِّبَاطُ ، فَذَلِكُمْ الرِّبَاطُ » [15]

3- توجيههُ صلّى الله عليه وسلّم إلى الصحابة سؤالاً ، و يستمع إلى أجوبتهم ، ثمّ يناقشهم في هذه الأجوبة و يُصوّبهم ، ومثاله حديثه صلّى الله عليه وسلّم : « أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا : الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لا دِرْهَمَ لَهُ وَلا مَتَاعَ ، فَقَالَ : إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»[16]

4- حوارٌ عاديٌ غيرُ متعمّدٍ ، الوقائع أمْلتهُ وهو حوار تعليميّ للصحابة غالبًا ما يُبادرُ فيه الصحابة سؤال النبيّ (ص) ، وهو يُجيبهم كحديثه صلّى الله عليه وسلّم عن أفضل الأعمال في حواره مع أبي ذرالغفاري حين بادرهُ بالسؤال[17].

**- نصّ الحديث النبويّ :**

**عَنْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ - رضى الله عنه - قال: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ε قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ: « الصَّلاَةُ عَلَى مِيقَاتِهَا » . قُلْتُ ثُمَّ أَيٌّ . ؟ قَالَ: « ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ » . قُلْتُ ثُمَّ أَيٌّ ؟ قَالَ: « الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ » . فَسَكَتُّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ε وَلَوِ اسْتَزَدْتُهُ لَزَادَنِي.**[18]

**- المعنى الإجماليّ للحديث:**

هذا الحديث النبويّ توجّه فيه عبدُ اللهِ بن مسعود - رضي الله عنه – إلى رسولَ الله ρ بسؤاله عن أفضل الأعمال إلى الله، ليكون حرصه عليه أشدّ، وعنايته به أكبر، فأجابه الرسول ρ بأنّ الأحبّ والأرفع درجةً الصّلاة على وقتها.[19] وقُدِّمَت الصلاة لأجْل أنهّا رأس الدّين وعُمْدته، وبها قوامة ولا يصحُّ الدّين إلاّ بها، ومتى وقع فيها خلل لم ينفعْ غيْرها من الأعمال؛ بدليل أحاديث كثيرة جاءت في ذلك.[20] فإذا وقعت الصلاة في وقتها كانت أحبّ إلى الله من غيرها من الأعمال.[21] ثمّ سألهُ ابن مسعود عمّا يلي ذلك، فقال له ρ: برّ الوالديْن . ثمّ سألهُ ابن مسعود عمّا يلي، فقال ρ الجهاد في سبيل الله، فأمره أوّلا بالصلاة. ثمّ أمَر ثانيةً بما فيه رضا الرحمان، وهو برّ الوالديْن، ثمّ أمَر ثالثةً بما احْتوى على الخيْريْن العامّ والخاصّ، وهو الجهاد، فالخيْر العامُّ الذي فيه هو ظهور الإسلام، والخيْر الخاصُّ هو ما فيه من بذل جميع المحبوبات في ذات الله تعالى.[22]

قال الطبري: إنمّا خصّ ρ هذه الثلاثة بالذكر لأنهّا عنوان على ما سواها من الطاعات، فإنْ ضَيَّعَ الصّلاة المفروضة حتى يخرج وقتها من غيْر عُذْرٍ مع خفّة مُؤْنتِها عليه وعظيم فضلها، فهو لما سواها أَضْيَع، ومَنْ لمْ يَبرّ والديْه مع وفور حقّهما عليْه كان لغيْرهما أقلّ برًّا، ومَنْ تَرَك جهاد الكفّار معَ شدّة عداوتهم للدّين كان لجهاد غيْرهم من الفُسّاق أتْرَك، فظَهَر أنّ الثلاثة تجتمع في أنّ مَنْ حافظ عليها كان لِمَا سواها أحْفظ، ومَنْ ضَيَّعَها كانَ لما سواها أضْيَع.[23]

**- صُوَرُ الحوار و خصائصه البلاغيّة في النصّ الحديثيّ:**

في الحديث النبويّ نجدُ الحوار الأسلوب الأمثل للدعوة إلى الله تعالى ، إذْ بفضل الحوار كان رسول الرحمة صلّى الله عليه وسلّم يُوقظ النفوس اللّوّامة و يُكْسبُ أصحابها شحنات من

الإيمان و العزم و التصميم يستطيعون بفضلها مقاومة القوى الشيطانية و تهذيب الشهوات البشرية و بَسْط سلطان العقل و الإيمان على أقوال المؤمنين وأعمالهم ، وبفضله كان يُقيمُ الحجّة و البرهان على المشركين و أهل الكتاب وغيرهم .و قدْ سجّلت كتب السيرة والسنّة كثيراً من حوار دعوته صلّى الله عليه وسلّم للناس و تعليمه ووعظه وتنظيمه للمجتمع المسلم ، ولا أدلّ على ذلك من كثرة الأحاديث الحواريّة في سيرة النبيّ ص وسنّته الشريفة ، ذلك أنّ الحوار كان الوسيلة الأولى المفضّلة لدى النبيّ ρ و صحابته في الدعوة إلى الله تعالى ، وهو المنهج الذي اتّبعته الدعوة إلى الله تعالى بالحسنى بكلّ تفصيلاتها و مراحلها .[24]

يقوم هذا الحديث النبويّ على الحوار ، وهو أسلوب مُهمٌّ من أساليب التعليم ، وهو هنا حوارٌ ثنائيٌّ بين الصحابيّ الجليل عبد الله ابن مسعود و النبيّ محمد (ص) ، حوارٌ بينهما على قضية جوهريّة تشغل بال الصحابي بلْ كلّ المسلمين حول أحبّ الأعمال عند الله ، فيأتي جوابه (ص) واضحًا بيّنًا في تسلسلٍ مُحْكمٍ و نسقٍ منتظمٍ .

فالحوارُ هو النهج العام للحديث النبويّ لأنّه ρ يُحاوِرُ الصحابة، و يشهد تفاعلهم مع بيّنات الدين الإسلامي القويم ، فهو أحقّ كلامٍ بشريٍّ بصفة الحوار فضْلاً عمّا يُثيرُهُ الحديث أحيانًا كثيرة من الحوار المتجاذب.[25]

لقد بُنِيَ هذا الحداث بناءً تحاوريًّا و قد تكوَّن من خمسة مقاطع: مقطعان سرديان . المقطع الأول المستفتح به، والأخير المختتم به. وثلاثة مقاطعَ حواريّة شَكَّلَتْ في حقيقة الأمر جوْهرَ الموضوع ومحورَ النصّ وغاية الحديث ومَقْصَده.

**-المقطع الأوّل:** [ سألْتُ رسولَ اللهِ ρ ] جملة فعليّة مَاضويّة تضمّنَتْ المحَاورَ الأساسيّة الثلاثة للحوار الثنائي: الفعل (سأل) الدّال على سؤال الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رسولَ الله ρ ، لأنّه ρ هو المُوَجّهُ والمُرْشِدُ للصحابة ولسائر المسلمين . وهو الطرف الأوّل في هذا الحوار. و (رسول الله ρ) يُمَثّلُ الطرف الثاني في العملية الحواريّة، المُجيب والشارح والمُخبر والمُرشد .

**-المقطع الثاني:** [قلت يا رسول الله أيّ العملِ أفضلُ ؟ قال الصلاة على ميقاتها] تكَوَّن هذا المقْطعُ النصيّ منْ جُمْلتيْن: الأولى جمْلة استفهامية ( أيُّ العملِ أفْضَلُ ؟ ) مبدوءة باسم استفهام (أيّ)، وهو عنْد سيبويه لتمييز أحد المشاركيْن في أمرٍ يعُمُّهُمَا، وعند ابن جني هو سؤال عن بعض من كلّ، وتَكون لمنْ يعقل ولما لا يعقل، وقد وليها في الحديث النبويّ مضاف إليه (العمل) متبوعًا باسم تفضيل (أفضل)[26] .

**- المقطع الثالث:** [ قُلْتُ: ثُمّ أيُّ ؟ قال: ثُمّ برُّ الوالديْن ]

هذا المقطع يحمل سؤالاً بتوالي السؤال بعد السؤال، فاستدعاؤه الجواب عقب كلّ سؤال، في مسار تدريجيّ يسعى عبْرهُ عبد الله بن مسعود إلى معرفة أفضل الأعمال وأكثرها أجرًا.

**-المقطع الرابع:** [قلت ثم أيُّ ؟ قال ثمّ الجهادُ في سبيل الله].

تَكَوَّن هذا المقْطع من جملتيْن اسميتيْن، الأولى للاستفْهام (ثمّ أيّ؟)، والثانية جواب له (ثمّ الجهاد في سبيل الله) امتدادُ الحوار الثنائي، و استمرارٌ في المنحى التصعيديّ في هذا الحوار النبويّ القائم على السؤال و الجواب، فيواصل ابن مسعود سؤاله ( ثُمّ أيُّ ؟ )، ويُجيبه ρ ( ثُمّ الجهاد في سبيل الله) .

**-المقطع الخامس:** [فسكتُّ عنْ رسول ρ، ولوْ استزدْتُه لزادني] .

هذا المقْطع النصيّ يُعَدُّ مقطعًا سرديًّا أنْهَى ابن مسعود به هذا الحوار، فعبَّرَ عنْ ذلك بالجملة الفعلية (فسكتُّ عن رسول الله). وأتْبَع ذلك بجملة شرطيّة مبْدُوءة بحرْف امْتناعٍ لامتناعٍ (لوْ) في قوْله (لوْ استزدْته لزادني) دليلٌ على حُسْن تأَدُّبه -رضي الله عنه- واحترامه للنبيّ ρ وللعلماء، وعدم الإكثار عليهم في السؤال بغير ضرورة.[27]

إنّ أهمّ ما ميَّزَ هذا البناء الحواريّ في الحديث الشريف قيامه على خاصيّتيْن هما الاستفهام و الإيجاز:

**1- الاستفهام** :

إنّ الناظر في الحوار النبويّ القائم على الإنشاء يجدُ أنّه يميلُ في أغلبه إلى الاستفهام ويكون السؤال والجواب بين الطرفيْن المُخاطِب والمُخاطَب [28] ، ففي هذا الحديث لمَّا كان المُحاوِرُ - عبد الله بن مسعود – مُسْتفْسِرًا غير مُكَذِّبٍ و لا شاكّ ، وإنّما كان يستفسر طلبًا للعلم ، فكان جوابه صلّى الله عليه وسلّم واضحًا بصيغة الإخبار المباشر بِجُملٍ اسميّةٍ ، فالحوارُ لابُدّ أنْ تطرح فيه أسئلة ، وتعرض في أثنائه استفهامات تزيد الأمر إيضاحًا و بيانًا فلا غنى للمتحاوريْن عن السؤال ، وللسؤال أغراضٌ متعدّدة ، فأحْيانًا يكون القصد منه الوصول إلى معلومةٍ مهمّةٍ أو أمْرٍ ينفعُ في ترتيب المعلومات في أثناء الحوار، والتدرُّج منها إلى غيرها [29] . والاستفهام لونٌ من ألوان التعبير ، ينقل أدقّ المشاعر وأعْمق الأحاسيس ، و يبثّ أخفى الخواطر و الهواجس ، باعثًا في نفس المتلقّي شتّى الإيحاءات المتوهجّة المتداخلة ، فيحسّ نبض الكلمات و حرارة الانفعالات في التعبيرات التي تنتفض حياة متدفّقة . وهو أسلوبٌ لا يعتمد المنهج العقلي حسب ، بل يغلبُ عليه إثارة العواطف و شحن الوجدان ، وإدامة التواصل بين المتكلّم و المُخاطَب . و الاستفهام النبويّ ولاشكّ وسيلةٌ ناجعةٌ تعالجُ عالم الإنسان المسلم الداخلي والخارجي و المواقف التي يمرُّ بها و يتعامل معها بما تحمله من معانٍ ودلالاتٍ تحيطُ به ويريد تحقيقها .[30]

وهذا ما نلْمسُهُ فعْلاً في استمرار الصحابيّ و إلحاحه في سؤال النبيّ (ص) سؤالاً بعد سؤالٍ ليخرج بجوابٍ شافٍ وخبرٍ يقينٍ للقضية التي شغلت بالهُ و حازتْ اهتمامه نظرًا لأهميّتها و تعلُّق الفوز والنجاة في الداريْن بها .

في المقطع الأوّل من النص الاستفهام عن بعض الأعْمال الفاضلة من مختلف الأعمال الخيريّة فـ (أيّ) اسم اسْتفهام مبتدأ، وهو مضاف، و(العمل) مضاف إليه، و(أفضل) خبر.، ومثله أيضًا في المقاطع الموالية ( ثمّ أيّ؟)

فاستفهام عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - استفهام حقيقي كونه يطلب الفَهْم لجهْله عمّا يسأل عنه ، مُتَوَخِّيًا معرفة مرغوبه ؛ فكان أكثر ما ورد على لسان الصحابة الكِرَام من

استفهام طلبًا للفَهْم لأنّ الرسول ρ هو المُبَلّغُ رسالةَ الله عزّ وجلّ في الأرض، فكانُوا يطلبون منه فهم أمور دينهم، فهو مُعَلّمُهم ومُرْشدهم إلى طريق الحقّ والاستقامة.[31]

**2-الإيجازُ:**

من خصائص أسلوب الحديث النبويّ الإيجاز، وهو عند البلاغيّين تأدية المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة ، وهو قسيم المساواة و الإطناب ، وهو أشدّ تأثيرًا في السامعين ولا يقْوى عليه إلاّ مَنْ رُزِق خدّة في الذهن و إرهافًا في الإحساس البياني ، ومعرفة تامّة بدلالة المفردات ، وإدراكًا واعيًا لأحوال المخاطَبين . وقد اجتمع ذلك كلّه في الرسول صلّى الله عليه و سلّم على أكمل وجْهٍ[32] ، فالحوار الجيّد هو ما اتّسم بالتركيز و الإيجاز لأنّ طول العبارة الحواريّة يُميت حيوية الحوار ، فإذا كان الحوار جيّد المناقلة سديد المساجلة سريع الجواب قصير الخطاب كان أدْعى إلى التأثير و بلوغ القصْد[33] . وهو عند البلاغيين ضربان :

أ – إيجاز قِصَر : وهو تقليل الألفاظ و تكثير المعاني ، وقيل : هو تضمين العبارات القصيرة معاني كثيرة من غير حذف . وقيل أيضًا : هو الذي لا يمكنُ التعبير عن معانيه بألفاظ أخرى مثلها وفي عدّتها . وهذا النوع كما يقول ابن الأثير: « هو الذي لا يمكن التعبير عن ألفاظه بألفاظ أخرى مثلها ، وفي عدّتها ، وهو أعلى طبقات الإيجاز مكانًا و أعوزها إمْكانًا ، وإذا وجد في كلام بعض البلغاء فإنّما يوجد شاذّاً نادراً . »[34] ب – إيجاز حذف : وهو القسم الثاني للإيجاز و هو ما يحذف منه كلمة أو جملة أو أكثر مع قرينة تُعيّنُ المحذوف . ولا يكون إلاّ فيما زاد معناه على لفظه.[35] وهذا النوع من الإيجاز عرّفه ابن الأثير: « أمّا الإيجاز بالحذف فإنّه عجيب الأمر شبيه بالسحر ، وذاك أنّك ترى فيه ترك الذكر أفصح من الذكر ، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق ، و أتمّ ما تكون مُبيّنًا إذا لم تبيّن ، وهذه جملة تنكرها حتى تخبر ، وتدفعها حتى تنظر . »[36]

في هذا الحديث كان الإيجازُ إيجازَ حذفٍ ، فأجُوبته صلّى الله عليه وسلّم عن أسئلة سائله - عبد الله بن مسعود - (الصلاةُ على وقتها – برُّ الوالديْن – الجهادُ في سبيل الله ) كلاًّ منها خبرٌ

لمبتدأ محذوف و التقدير ( أفضلُ العمل الصلاةُ على وقتها – أفضلُ العمل برُّ الوالديْن - أفضلُ العملِ الجهادُ في سبيل الله ) .

في المقطع الأوّل من النصّ عقب السؤال الذي طرحه ابن مسعود على النبيّ (ص) جاء جوابه ρ مقتضبًا بقوله ( الصلاة على ميقاتها ). جملة اسمية اكتفى فيها بذكْر الخبر، وحَذْف المبتدأ، وتقديره ( العملُ الصلاة على ميقاتها )، ويمكنُ أنْ تكون (الصلاة) مبتدأ. والخبر محذوف تقديره (أفضل) فيكون تقدير الكلام ( الصلاةُ على وقتها أفضلُ الأعْمال ).[37] وفي المقطع الثاني من الحوار الثنائي كانَ أيْضًا مقتضب الصياغة، موجز اللّفْظ، اكتفى فيه ابن مسعود في سؤاله باسم الاستفهام (أيُّ) وحَذَف ما بعده من مضاف إليه وخبر، وتقدير الكلام ( ثمّ أيُّ العمَلِ أفْضَلُ؟ ). قال أبو الفرج: أيْ هو بالتَّشْديد والتنْوين كذا سمعته من ابن الخشاب . وقال الزركشي: هذا إذا وصلته بما بعده. فإنْ وقفْتَ عليْه فبالإسْكان، وقال الفاكهاني: ينبغي أو يتَعَيَّن هنا أن لا يُنَوَّن لأنّه موْقُوف عليْه في كلام السائل، ينتظر الجواب منه عليه.[38] ثم جاء جوابه ρ بذكر الطاعة الثانية التي فيها أجر كبير، وفضل عظيم بقوله (ثمّ برّ الوالدين) جملة اسمية اكتفى فيها بذكر الخبر حاذفًا المبتدأ، فتقدير الكلام (ثمّ أفضلُ العملِ برُّ الوالديْن).[39]

أمّا المقطع الثالث من النص فهو كذلك قوْلان مُوجَزَان اكتفى السائل باسم الاستفهام (أيُّ) وحذف ما يليها، واكْتَفَى المجيب ρ بالخبر، وحَذَف المبتدأ، على نفس النسق الذي انبنى عليه المقطع السابق، لِمَا يحْمِلُه هذا الحذْف منْ دلالات، ويُؤَدِّيه منْ دَوْر في ترابط النصّ الحديثيّ وجماليةٍ في أسلوبه ووضوح في دلالته.

ولعلّ السرَّ في اختصار الإجابة بحذف المسند إليه أنّ المقام مقامُ استيضاح و استفسار عن شيءٍ مجهولٍ لدى السائل ، ومادام السائل يطلب المعرفة ويستفسر عن شيء يجهله ، فمعنى ذلك أنّ نفسه مستشرفة إلى الإجابة ، متشوّقة إلى المعرفة فالمبادرة بالإجابة في مثل هذه الحال –اختصارًا وإيجازًا- أفْضلُ و أوْقَعُ في نفْس السائل ، إذْ يقعُ على مطلبه بسرعة فيتمكّن من نفسه فضل تمكُّنٍ ، والرسول المُعلّم يُدْرِكُ ذلك و يُراعي أحوال المُخاطَبين .[40]

يمكنُ القولُ إذن أنّ النصّ النبويّ الحواريَّ في نمطهِ، الإرشاديَّ في أهدافهِ ومقاصدهِ اعتمد على الحذْف، كمَا أنّ الحذف المتَعَدّدَ في حضُورهِ المُكَثّف في مدْلولهِ في النصّ النبويّ ليُعدُّ مِنْ أكثر الروابط التي تُنَاسبُ النصوصَ الحواريّة أكثر من غيرها من النصوص الأخرى، لاسيمَا أنّهُ جاءَ للإيجاز اعتمادًا على فَهْم المُخَاطِب (النبيّ) - المُجِيب والآمِر- في سياق الحديث، وتجاوبه تواصُليًّا مع المخاطَب (الصحابة) - المُتَلَقِي والسائِل- كما أنّ غالب الحوار في البيان النبويّ قائمٌ على السؤال والجواب سواءً بَدَأَ النبيّ ρ الحوارَ بالسُّؤال، أوْ كان مبدُوءًا هو بالسُّؤال، لذلك كَثُرَ الاستفهامُ في الحوار النبويّ سواءً على معناه الحقيقيّ، أوْ على معناه المجازيّ، هذا إلى جانبِ ما يتميَّزُ بهِ الحوارُ من مخاطبتهِ الإنسان في أكثرَ من جانبٍ، جانبِ العقل، وجانبِ الوجدان والنفس، ممّا يُثِيرُ انتباهَ المخاطَب ويستحضرُ حِسَّهُ وبديهتَهُ .

**الهوامش :**

[1] مقال " منهجية الحوار في القرآن الكريم " محمد عبد اللطيف رجب عبد العاطي ، مجلة الشريعة والقانون ، جامعة الإمارات العربية المتحدة ، ع35 ، رجب 1429هـ - جويلية 2008م، ص177

[2] لسان العرب، ابن منظور، اعت وتص أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادة العبدي، دار إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1419هـ/1999م.3/383-384

[3] القاموس المحيط، الفيروز أبادي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان.، باب الراء فصل الحاء ، ص493-494

[4] الانشقاق :14

[5] الكهف:37

[6] المجادلة :01

[7] ينظر : المعجم الوسيط ، إبراهيم مصطفى وآخرون، مجمع اللغة العربية، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر، ط4، 1425هـ/2004م، ص205-206

[8] الحوار أصوله و آدابه وكيف نربّي أبناءنا عليه ؟ موسى بن يحي الفيفي ، دار الخضيري للنشر والتوزيع ، مكتبة الملك فهد الوطنية ، المدينة المنورة ، السعودية ، 1427هـ، ص30

[9] ينظر: الحوار في الحديث النبويّ تراكيبه وصُوَره ، عيد محمد شبايك، دار حراء، القاهرة، مصر، (دط)، (دت) ، ص29-30

[10] الحوار أصوله المنهجية و آدابه السلوكية ، أحمد بن عبد الرحمان الصويان دار الوطن ، الرياض ، السعودية ، ط1، 1413هـ ، ص28

[11] ينظر: الحوار في السيرة النبويّة ، السيد علي خضر ، رابطة العالم الإسلامي المركز العالمي للتعريف بالرسول ρ ، 1431هـ ، ص37-43 و ينظر: الحوار منهجاً و ثقافة ، محمد خليفة حسن أحمد ، مركز البحوث والدراسات ،وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، قطر، ط1 ، 1429هـ/2008م ، ص30-31

[12] الحوار في القرآن الكريم ، معن محمود عثمان ضمرة ، أطروحة ماجستير، كلية الدراسات العليا ، جامعة النجاح الوطنية ، نابلس فلسطين ، 2005م ، ص23

[13] ينظر: الحديث النبويّ مصطلحه بلاغته كتبه، محمد الصباغ، المكتب الإسلامي بيروت، لبنان، ط4، 1401هـ/1981م، ص96-97 ، والحوار في الحديث النبويّ تراكيبه وصوره، عيد محمد شبايك، ص29-31

[14] صحيح البخاري ترق وترت محمد فؤاد عبد الباقي، دار ابن حزم، القاهرة، مصر، ط1، 1430 هـ/ 2010م ، كتاب الإكراه باب يمين الرجل لصاحبه إنّه أخوه إذا خاف عليه القتل أو نحوه ، رقم 6952، ص830

[15] صحيح مسلم، عناية أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي، دار طيبة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط1، 1427هـ/2006م ، كتاب الطهارة ، باب تبليغ الحلية حتى يبلغ الوضوء ، ص 132، و الحديث النبويّ مصطلحه بلاغته كتبه، محمد الصباغ ، ص101-102،

[16] صحيح مسلم ، كتاب البر و الصلة و الآداب ، باب تحريم الظلم ، رقم 2581، ص1199-1200

[17] صحيح البخاري ، كتاب العتق، باب أيّ الرقاب أفضل رقم2518، ص299، و ينظر: الحديث النبويّ مصطلحه بلاغته كتبه، محمد الصباغ ، ص103،

[18] صحيح البخاري، البخاري ، كتاب الجهاد والسير ، باب فضل الجهاد والسير، رقم 2782 ، ص339.

[19] الأدب النبويّ، محمد عبد العزيز الخولي، ص93.

[20] بهجة النفوس وتحليها بمعرفة مالها وما عليها شرح مختصر صحيح البخاري، ابن أبي جمرة الأندلسي، تح وتع عادل أحمد إبراهيم، مكتبة فياض للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، مصر، ط1، 1434هـ/2013م ، 2/156-157.

[21] ينظر: فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، 13/2.

[22] بهجة النفوس وتحليها بمعرفة مالها وما عليها، ابن أبي جمرة ، 2/156-157.

[23] فتح الباري، ابن حجر العسقلاني، 7/6. و شرح صحيح البخاري ، ابن بطال، ضبط وتعليق أبو تميم ياسر ابن إبراهيم، مكتبة الرشد الرياض، السعودية، (دط)، (دت). 5/6-7

[24] ينظر: الحوار في السيرة النبويّة ، السيد علي خضر ، ص 58-60

[25] ينظر: في ظلال الحديث النبويّ ومعالم البيان النبويّ، نور الدين عتر، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، مصر، ط1، 1434هـ/ 2013م ، ص362

[26] ينظر: أساليب الطلب في الحديث النبويّ الشريف دراسة لغوية بيانية (في الموطأ)، محمد سعيد عبد الله، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2000م ، ص98-99.

[27] ينظر: بهجة النفوس، ابن أبي جمرة، 2/158.

[28] مقال "نظرات في بلاغة الحوار النبويّ ( الحلقة الثالثة) ، د محروس بريك ،
http://www.hamassa.com/2016/04/22/ تاريخ 20 مارس 2017 ، 19:48 .

[29] ينظر: الحوار آدابه و ضوابطه في ضوء الكتاب و السنة ، يحي بن محمد حسن بن أحمد زمزمي ، دار التربية و التراث مكة ، رمادي للنشر الدمّام ، السعودية ، ط1، 1414ه/1994م ، ص452

[30] ينظر: الخطاب الطلبي في الحديث النبويّ الشريف دراسة بلاغية في متن صحيح البخاري، هناء محمود شهاب، دار غيداء للنشر و التوزيع، عمان الأردن، ط1، 1435ه/2014م ، ص113

[31] ينظر: أساليب الطلب في الحديث النبويّ الشريف دراسة لغوية بيانية في الموطأ، محمد سعيد عبد الله ، ص74. والخطاب الطلبي في الحديث النبويّ الشريف دراسة بلاغية في متن صحيح البخاري، هناء محمود شهاب، دار غيداء للنشر و التوزيع، عمان الأردن، ط1، 1435ه/2014م .، ص123.

[32] الحديث النبويّ مصطلحه بلاغته كتبه، محمد الصباغ ، ص105-106

[33] الحوار في الحديث النبويّ تراكيبه وصوره، عيد محمد شبايك، ص156

[34] في البلاغة العربية علم المعاني ، عبد العزيز عتيق ،.دار النهضة العربية ، بيروت لبنان ، دط ، دت ، ص176 ، و ينظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، تح أحمد الحوفي و بدوي طبانة ، دار نهضة مصر للطبع والنشر الفجالة القاهرة، مصر، ط2، دت ، 338/2

[35] ينظر: المصدر نفسه ، ص 178 .

[36] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير ، 268/2

[37] ينظر: عقود الزبرجد في إعراب الحديث النبويّ، السيوطي، تح وتق سلمان القضاة، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1414ه/1994م ، 91/2.

[38] ينظر: المصدر نفسه ، 90/2.

[39] نظرات لغوية في السنة النبويّة، حنفي أحمد بدوي، ص65-66.

[40] ينظر: المصدر نفسه ، ص186